سنة وشيعة وإسلام واحد

البروفيسور عبد الستار قاسم

تتردد على الألسن الآن كلمتا الشيعة والسنة، وتخوض المجالس الخاصة والعامة نقاشا وجدلا حول كل فرقة ومدى الصواب لديها والخطأ. أججت الحرب على العراق الكثير من المشاعر والشجون والتاريخ وأحيت قضايا كانت في بعض الأقطار العربية غائبة عن البال تماما. هناك مقالات كثيرة تكتب الآن حول الفرقتين، وخطب ومواعظ تعطى وتصريحات تُنقل، والكثير من النار تُشعل. مساجد تفجر ورجال دين يُغتالون واتهامات تُوجه. الفرقة قائمة وموجودة والمتشنجون من كلا الفرقتين يسعون في التحريض وبث الكراهية والأحقاد.

هذا مقال سيكون مثيرا للجدل بالتأكيد، لكن الكلمة يجب أن تُقال عسى في ذلك ما يساعد الناس على عدم الإنجرار إلى حرب قديمة تخرب البيوت وتقتل النفوس وتفقأ الأعين وتبقر البطون. هناك من المشاكل في هذا القرن ما يكفينا ولا نريد لحروب القرون الغابرة أن تطل برأسها علينا من جديد.

لا مفر للأمة إن أرادت الوحدة والمنعة أن تتجاوز الفرق وأن تفتح الباب أمام العقل الإسلامي ليجتهد ويطور ويتحرر من الماضي. وهنا أبرز النقاط التالية:

أولا: تاريخية الفرق الإسلامية. الفرق الإسلامية على اختلاف ألوانها وأشكالها عبارة عن نتاج ظروف تاريخية لا علاقة لها بالدين الإسلامي أو بالقرآن الكريم وما تواتر إلى المسلمين من سنة نبوية. حصلت أحداث على الساحة الإسلامية ولدت صراعا خضع لتفسيرات عدة ومواقف متباينة انتهت إلى تشكيل فرق إسلامية منحازة لهذا الشخص أو ذاك، أو لهذه المجموعة أو تلك. الفرق الإسلامية هي بنات الأحداث وليس بنات التعاليم الإسلامية، ولا تستطيع أي فرقة أن تفرض نفسها على أنها مما أنزله الله سبحانه وتعالى على عبده عليه الصلاة والسلام.

دققت في القرآن الكريم لأجد شيعة وسنة ومكانة كل منهما عند الله سبحانه فلم أجد، وإذا كان هناك من يرى أن فرقته قد فضلها الله على باقي المسلمين فإنني كدارس أحب أن أعرف من أجل أن أثري دراستي الإسلامية. ولم أجد في القرآن أيضا ما ينص على أن على المسلمين أن يعكسوا الأحداث التاريخية التي تلت التنزيل وحدثت بعد انتقال الرسول عليه الصلاة والسلام إلى جوار ربه على الإسلام. لقد أتم الله لنا الدين الإسلامي بنص القرآن قبل الأحداث التاريخية ولم يترك بابا مفتوحا ليتمه لنا شخص أو حدث أو فرقة.

فإذا أراد أحد من المسلمين الآن أن يخوض معارك علي ومعاوية أو معارك الحسين ويزيد فله أن يفعل، إنما بمعزل عن المسلمين وفي بلاد أخرى غير بلاد المسلمين. لا أظن أن المسلمين يريدون أن يخوضوا معارك قديمة قد انتهت بكل ما لها وما عليها، فهناك معارك معاصرة وحيّة تدور في عقر دورنا ومن الأجدى أن نفكر في كيفية الانتصار فيها.

ثانيا: الرأي والفرقة. الإسلام لا يمنع التعبير عن الرأي ولا حرية تكوين الرأي ولا حتى حرية الاعتقاد. الباب مفتوح للاجتهاد بنص آيات قرآنية كثيرة حضت المسلمين على التفكر والتدبر والتعقل والنظر. بل أن التدبر واجب بقول الله سبحانه "أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها." وبما أن التشعب في الآراء وارد إسلاميا فإنه من المتوقع أن تخضع الآراء المختلفة للنقاش والجدل والتمحيص والتدقيق من قبل الباحثين والعلماء والمهتمين. بمعنى أن لصاحب الرأي أن يحاول إقناع الآخرين برأيه عساه يكون الرأي الأكثر قبولا والمرجح على الآراء الأخرى. هكذا تتكون تيارات فكرية حول مختلف القضايا.

لكن هل هذه التيارات بالضرورة ثابتة وتشكل فرقة واحدة مميزة في مقابل المسلمين؟ طبعا لا لأن التيارات قد تكون متموجة؛ أي أن الذين يتفقون على رأي معين حول قضية منفردة قد لا يتفقون على رأي واحد حول قضية أخرى. وإذا كان التجمع الفكري قد اجتمع حول فلسفة فكرية محددة فإنه لا يتم على حساب الأمة بحيث تتغلب المصلحة الحزبية أو الفئوية على المصلحة العامة. أي أن الرأي لا يتحول إلى فرقة دينية بأي حال من الأحوال على الرغم من إمكانية تحوله إلى مجموعة لا تخرج عن وحدة الأمة. (علما أن كلمة فرقة تنحدر لغويا من فرق) الحزبية بالمصطلح الحديث واردة إسلاميا لكن الفرقة ببعدها التاريخي ليست من الإسلام.

ثالثا: الآثار السلبية للفرق الإسلامية. انقسم المسلمون على أنفسهم قديما وأضعفوا بذلك أنفسهم والأمة وعرضوها للتشتت والتخلف. تنافست الفرق فيما بينها في أغلب الأحوال إسقاطيا وليس إنجازيا واهتمت بحشد أناس إلى جانبها بطريقة أشبه ما تكون بالعزوة القبلية. وبدل أن تهتم بالقضايا الأساسية التي يمكن أن تؤدي إلى تقدم الأمة اهتمت في أكثر الأحيان بقضايا فقهية تخص السلوك اليومي للمسلم إلى درجة أنها فشلت في تربية المسلم إيجابيا نحو الدفاع عن الحق والإصرار عليه وفي حشد الطاقات لمواجهة الفوضى الداخلية والأعداء الخارجيين. لقد عقدت الدين الإسلامي بدل أن تتمسك بصفته كدين يسر وأصرت على استهلاك طاقات الإنسان في مناكفات وصراعات تدمر ولا تعمر.

لم تتوقف الآثار السلبية للفرق الإسلامية عند القديم وإنما حملت الفرق اهتماماتها الخاصة عبر الأجيال لتلقي بظلالها على الوقت الراهن. هناك سنة وشيعة في باكستان يتبادلون الاعتداءات ويقتلون الناس في المساجد، وهناك من يثير نيران الفتن في العراق بين الفرقتين.

رابعا: جهود بعض رجال الدين. هناك رجال دين من مختلف الفرق الإسلامية لا يتخلون عن المعارك القديمة ويحرصون دائما على جرّ المسلمين إلى معارك لا هي من الإسلام ولا من متطلبات التحرر الوطني. لا شك أن هناك رجال دين يعملون على توحيد الصف الإسلامي ويحاربون الفرقة ويعملون بجد وإخلاص من أجل تقوية نقاط الالتقاء بين المسلمين ومعالجة نقاط الخلاف، لكن هناك من يكدون ويجهدون في البحث عن نقاط الخلاف لبث الفرقة وتأجيج نار الصراع. هذا الفريق المفسد هو الذي يتزعم الشارع الإسلامي في كثير من الأحيان ويستطيع تهييج الناس وتأليبهم بعضهم ضد بعض.

يرى بعض رجال الدين أن الوقت لم يحن بعد لمقارعة الأعداء الذين يحتلون أرض المسلمين في فلسطين وأفغانستان والعراق وشبه الجزيرة العربية وغيرها من المناطق. إنهم يرون أن الأولوية لتصفية حسابات داخلية لا أعتقد أنها ستنتهي. هذه خلافات عمّرت على مدى مئات السنين وهي بالتأكيد قادرة على الاستمرار ما دام بين المسلمين قادة متخلفون.

خامسا: رواد الفتنة. هناك من يعملون عامدين قاصدين على بث الفتنة والفرقة بين المسلمين سواء كانوا من بين ظهرانينا أو من الأيدي الخارجية. أذكر مثلا أنه عندما انتصرت الثورة الإيرانية على الشاه أن تم توزيع كتاب حول الفرق بين السنة والشيعة على أساتذة جامعيين عرب. كان يهدف الكتاب إلى إبراز نقاط الخلاف بين المسلمين ودفن نقاط الاتفاق. وقد كان العبث العربي الرسمي واضحا في الكتاب لأن الأنظمة خشيت أن تمتد الثورة لتشمل عروش العرب. ومن المعروف أن الحرب على إيران لم تخرج عن هذا السياق وأن صدام حسين لم يكن الوحيد المسؤول عن زج العرب في حرب أتت بالويلات على كل الأمة. وكما مولت دول غربية الحرب جزئيا لا أظن أنها كانت بعيدة عن تمويل الكتاب. والمعنى أن مصلحة إسرائيل وأمريكا وكل أعداء الأمة تكمن في فرقة المسلمين وليس في وحدتهم. هناك من بين المسلمين من يلبس عمة نابليون ليهدم الأمة باسم الإسلام.

هناك من بين أصحاب الفتنة من يثير قضية المزارات كمادة تحريضية على اعتبار أن الفريق الآخر ليس مسلما خالصا لما يقوم به من طقوس. هذه مسألة لا يستطيع طرف أن يدين طرفا آخر من خلالها ذلك لأن المسلمين يمارسون في الجوهر طقوسا قد تكون من الإسلام وقد لا تكون. فمثلا رأيت مسلمين يتمسحون بجدران مسجد الإمام الحسين في العراق، ومسلمين آخرين يتمسحون بجدران مسجد الحسين في مصر. هؤلاء شيعة وأولئك سنة. ومثلما رأيت مسلمين يبكون عند ضريح الإمام علي طلبا للمساعدة رأيت مسلمين يبكون عند ضريح السيدة زينب علها تمد لهم يد العون. هذه قضايا لها علاقة بالتطور الفكري للأمة وليس بفكرة الإيمان ووحدة الأمة الإسلامية.

أين الحل؟

قد يكون الحل جزئيا في التالي:

أولا: الإدراك بأن هناك قرآنا واحدا يجمع الجميع. من خلال الحديث عن فرق متصارعة يحاول بعض أناس إخراج أناس آخرين من البيت الإسلامي، الأمر غير الجائز شرعا. لا علاقة للإسلام بأبعاد التفسيرات التي ظهرت حول أحداث تاريخية عتيقة، وكل مفسر يتحمل مسؤولية تفسيره أمام الله والعباد والتاريخ. فمن أراد وجه الله فإن عليه أن يأخذ العبرة من التاريخ لا أن يتمسك بما بلى من الشجار والتشافه والصراع ليحدد سلوكه الإسلامي حسبه. أما من اختار طريق الضلال وفضل الباطل على الحق فإنه لن يسمع صوت القرآن، وسيفضل بالتأكيد أقوال أصحابه أو من يتعلق بأذيالهم.

ثانيا: إذا أصر أناس على الاسترشاد بالتاريخ ولكن دون إثارة فإنه من المهم أن يدركوا أن معاوية لم يكن ملاكا ولا جبريل خطاء. العقائدية في تفسير الرغبات والتمنيات مدمرة ولا تحسم أحداثا قد أصبحت من أملاك الدهور. التاريخ من أجل استخلاص العبر وليس من أجل تحديد المواقف، ومن شاء أن يحدد موقفه من الآخرين بناء على فتوى شخص كان في خضم فتنة، فليحاول مغادرة القرن الحالي إلى ما مضى من الأيام.

ثالثا: الأمة الإسلامية بنص القرآن أمة واحدة، وهي خير أمة أُخرجت للناس، والمؤمنون إخوة حتى لو اختلفت اجتهاداتهم. فإذا ركز المسلمون نظرهم على الوحدة والأخوة فإنهم سيفوزون في الدنيا والآخرة؛ وإلا فإن الخسارة ستبقى في الانتظار.

رابعا: الوحدة تتحقق من خلال العمل الميداني. إذا انتبهنا إلى مواجهة الأعداء وإلى الإعداد والاستعداد للتحرير ولتحقيق التقدم في مجالات الحياة فإننا سنجد ما يشغلنا عن معركتي صفين وكربلاء. هناك هموم كثيرة وكبيرة وهائلة تتطلب منا العمل والإعداد وتدعونا إلى مغادرة التاريخ لصالح الحاضر والمستقبل.

خامسا: من الضروري تثقيف المسلمين في كل مكان حول أخطار المحرضين على الفرقة والفتنة. هذه مسؤولية رجال الدين المؤمنين ووسائل الإعلام والمثقفين والمفكرين الملتزمين.

باختصار، أرى أن وحدة المسلمين واجبة، وأن التحريض على مسلم أو ضده يخرج عن التعاليم الإسلامية ويصب في النهاية في مصلحة أعداء الإسلام والمسلمين. وإذا أراد بعضهم أن يواصل حروبا سالفة فإنه من واجب المسلمين الوقوف في وجهه رافضين وزاجرين.